

منهج نقد الرواية الشفوية عند بلاشير

The method of criticizing the Oral Novel by Blasher

كريم بن سعيد

جامعة وهران 1 (الجزائر) – bdr309985@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/10/24 تاريخ القبول: 2019/10/30 تاريخ النشر: 2020/01/05

ABSTRACT:

ملخص البحث

The present study aims to respond Blasher on the idea that plagiarism phenomenon was already studied by the Arab critics.

Blasher was relied on passing the idea of the deficit split or choose between the original and the fake one. Blasher concludes his view by proposing an opinion that concerned plagiarism phenomenon and comparing it to the size or the degree of reality in the pre-Islamic poetic heritage. In doing this comparison, he illustrated that the poetic heritage and his Ummayyad brother denotes to a linear and a temporal sequence that do not allow the reasons for the split.

Moving to the old Arab critics idea specifically Dhabi and their positions on Hammad al-Rawya who bears the results of the subsequent Arab poetry from the fake.

In general, we find that the French Orientalist Blasher did not establish for himself a doctrine that entrenched his Orientalist philosophy as a model as it came to present the views of other Orientalists stopping at these limits that do not give way to add.

Key words: Curriculum, roman, oral, poésie, ignorant, Blasheer.

إن هدف الدراسة هو الرد على المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (1900 - 1973)، في ظاهرة النحل والانتحال التي نظرت لها وأقامها على مجموعة من المبررات والتوجهات النقدية. وقد استند في تمرير فكرة العجز عن فرز الأصل من الدخيل، ويخلص إلى إبداء رأي بشأن ظاهرة الانتحال ومقارنتها بحجم الصحة في الموروث الشعري ما قبل الإسلام. فعند إجراء هذه المقارنة، تبين أن الموروث الشعري وشقيقه الأموي يتديان إلى التتابع الخطي والزمني الذي لا يتيح أسباب الفصل بينهما منها فكرة النقد العرب القدامى وتحديد المفضل الضي وموقفهم من حماد الزاوية الذي يتحمل تبعات ما لحق بالشعر العربي من نحل، وعموما نجد أن المستشرق الفرنسي بلاشير لم يؤسس لنفسه عقيدة ترسخ فلسفته الاستشراقية كنموذج بقدر ما جاء يعرض رؤى غيره من المستشرقين متوقفا عند هذه الحدود التي لا تفسح المجال للإضافة. الكلمات المفتاحية: منهج، الرواية، الشفوية، الشعر، الجاهلي، بلاشير.

مقدمة:

إنّ المستشرقين الذين تناولوا بالدراسة والتحليل للموروث العربي المتعلق بقضايا اللغة والأدب، قد بالغوا إلى حد كبير بإثارة بعض المواضيع وخاصة منها موضوع "الرواية الشفوية" لشعر ما قبل الإسلام، فجاءت آراؤهم تنم عن معتقد راسخ في الذهنية الاستشراقية إزاء حضارة الشرق لتخرج قد يبدو طبيعيا لهم، وهو ما فسر بعض من "الشك" في الموروث الحضاري الذي يمثل فيها الشعر إحدى دعائمه، هو ما يطرح الإشكالية الآتية: ما مدى صحة الرواية الشفوية في تدوين الشعر الجاهلي؟ وما هي نظرة المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير، انطلاقا من فرضيات، أن الرواية الشفوية مدعاة للخطأ والانتحال؟

وهو الأمر الذي دفع بي إلى محاولة الإجابة عن هذه الفرضيات بأخرى تعتمد الاستقراء والتحري منهجا لرد كثير الرؤى التي نأت بنفسها عمدا عن الطرح الموضوعي الذي يأخذ بأسباب مساحة الإيجاب والسلب من مساحة متساوية مع تغليب الجانب المقنع الذي تركن إليه دراسة تهتم بفضاء شعر ما قبل الإسلام وهو الذي يعد مجالا خصبا غذى المخيال العربي وأسس للقصيدة الكلاسيكية لما هي عليه الآن.

1- حركية التدوين ومنهج الشك.

فالتأريخ لحركة الخلافات السياسية، بدأ مع تولي الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - سنة: 35هـ/65م، إن المعارك التي دارت بين اليمانيين والمصريين، وقت الخلافة الأموية، تكون قد عجلت باللجوء إلى المصادر المتنوعة في جمع الشعر العربي، مما يذكي لهيب غرض الهجاء الذي يكون الشعر إحدى مرجعياته، فيكون الاهتمام بجمع هذه الأشعار قد أسهم بقسط أوفر في الحفاظ على الموروث الشعري الجاهلي.

ومن الدواعي العابرة الأخرى زيادة على ما تقدم، هو لفضول في كنه الماضي في التأريخ لشبه الجزيرة العربية، يبقى يحتفظ لنفسه بالحدث الخطير، والذي يتجلى في بزوغ الإسلام، فعند الإتيان على ذكر شمائل العرب المطبوعة كالكرم، وملحمة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وغزوة المشركين، وكذا ضروب المروءة التي اشتهر بها المسلمون - بعضهم - عند الفتوحات، وبالعودة إلى فحوى الشعر نقرأ الانظام الذي ميز حياة العرب الطويلة.

إن الحركة المنتظمة لجمع الشعر العربي الجاهلي، يعود فيها الفضل إلى معاوية بن أبي سفيان، عندما أمر عبيد بن شربة الجرهمي القادم عليه من اليمن واستفساره إياه عن أحوال الملوك العرب والعجم، والدواعي المؤدية إلى لكنة الألسنة، وما اختلف فيها الناس، فأمر معاوية بالكتابة، ويبقى من المشقة بمكان التصديق بهذه الرواية لانعدام القرائن التي تدعمها في موروث عبيد بن شربة¹.

فإن مقام به معاوية، لا يخرج عن النطاق العام لانشغالات عصره، أسهم ظهور الإسلام في الحفاظ على الذاكرة الشعرية، وذلك بحفظ شعر من أسلموا، كحسان بن ثابت، فبرغم تعدد المقاصد التي ساقتها العوارض في صون مآثور الشعر من الزوال، تبقى تكشف عن هوية وجدان أدبي أثناء عملية جمع الشعر، فعند توظيف غرض شعر الهجاء ينتقى فيه ما يتوافر عن الصنعة الفنية، فالأخذ بفكرة المعيار الذوقي الذاتي، ظل واردا يواكب حركية المجتمع "ويبدو أثناء الجمع، شيء من التفضيل الذوقي الذاتي"².

فالشاعر يقول عند تعداد المناقب عن الشعر الرصين الذي يخدم قصيدته، فهو يسقط من تعاملاته حلقات الشعر الضعيف، ويبقى في الأخير افتخار القبيلة بما تفرزه من فحولة شعرية تمجد شرف القبيلة كله يدفع ذلك بهذه القبيلة إلى حفظ شعر شعرائها الأمر الذي يفسر الترسخ التدريجي بعد شيوع ظاهرة الكتابة وعدم اللجوء إلى اعتماد الرواية الشفوية، كمصدر من مصادر تناقل الموروث الشعري فبالأخذ بالمعطى الذي يرجع في شيء إلى القرن الثالث الهجري إلى التاسع الميلادي يتضح منها أن ظاهرة تدوين الشعر موغلة في القدم في الوسط العربي.

فعند بلوغنا مرحلة الشاعر عمر بن أبي ربيعة، وباستقراء نصوصه الشعرية اهتدينا إلى توظيف ظاهرة المكتوب في تواتر الرواية الشعرية، حتى صار هذا الصنيع حدثا متصلا، وبتقني آثار ممن سبقوا، وبفعل المحاكاة أقحمت الكتابة في ترسيخ النقول الشعرية الشفوية³ السابقة، وهناك دليل آخر ظهر فيما احتفظت به إحدى المغنيات بآثار شعرية لعمر بن أبي ربيعة بعد وفاته، أعدتها لتغنيها، ثم في خلافة الوليد بن عبد الملك، قام

الخطاط بن أبي الهياج بكتابة المصاحف والشعر والأخبار للخليفة المتقدم، ما يفضي بنا إلى الاطمئنان إلى الرواية التي نقلت امتلاك الفَرزدق) بعد 106 هـ/724 م (ديوان شعر زهير بن أبي سلمى)⁴.

كما أنّ منهجية الكتابة الموظفة بدت ضعيفة برغم الإصلاح الذي طالها كتثقيط الحروف والإعجام، فيعهد الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان ذلك كافياً لإقرار قواعد اللغة الدارجة. وهي مع ذلك كافية مادام المقصود بتثبيت اللغة الدارجة⁵.

إلا أنّ ذلك لا يعني صعوبة النص، فالكتابة تقف عاجزة لفك شيفرات النص الغامض وتتيح قراءة النص الشعري قراءة سليمة، كما هو عليه الشأن في النص القرآني المقدس في الاستنجاد بالاستظهار الدقيق، مع الترجيح في تواجد حجم كبير من الشعر على اختلاف أنواعه، بقيت ذاكرة الرواة تسعه، ومنه ظل الشعر الجاهلي إلى وقت اتصالنا به حبيس الرواية الشفوية، مما جعله عرضة لعاديات الزمان....

2- جيل الرواة.

إنّ اقتحام جيل من الرواة ميدان الرواية التي جاءت تختلف عن رواة القبائل الأبرز خطراً يهدد عملية التدوين، كان ذلك سنة 742 م بأمصار مكة والمدينة، يضاف إليها دمشق كذلك، وكان أهل الكوفة والبصرة يميزونه ممن الرواية، وذلك لتضلّعهم في عالم الرواية، واستمرت احترافيتهم خمسين سنة أو أزيد، ومن أعلامهم، خلف الأحمر المتوفى سنة 180 هـ/796 م، ويتحدون كلّهم في أنّهم إلى الحواضر ينتمون، وكان من هؤلاء من إلى العرب ترجع جذوره، نحو: الكلبي ودعوانة، كما نجد أنّ منهم من تعود أصوله إلى الموالي، الذي يصعب معه تحديد أصوله، من أصل فارسي في جل الأحوال يتبنّى في عوائل محمودة تقطن حواضر العراق أو الحجاز، كما هو عليه الحال عند حماد الرواية وخلف الأحمر، ومما يميّز هؤلاء الرواة خبرتهم بالحياة البدوية وأحياناً آخر بإقامتهم فيها بحسب ما يمليه الظرف، مما رشّحهم لإتقان اللغة العربية، مع اطلاع كبير على الحياة الميثولوجية، يشترك فيهم بامتلاكهم ذاكرة حادة، تكون دائرة الرواية الشفوية قد سعت جهود هؤلاء الرواة الذكورية، فمع أنّهم؛ أي الرواة ظلّوا قائمين في حواضرهم.

إلا أنّ وصالهم القبلي بقي ممتدّاً خارج حدود القبيلة الواحدة، وهو ما نتج عنه امتداد نطاق الرواية الشفوية إلى أبعد مداه، وكان المرمى الروائي، ما فرض نفسه من شعر ذي قيمة فنية، فيطير به الصيّت ليلقى ذلك الزواج الواسع، فحماد الرواية -كما يبدو- الرائد في صنع المجموعات الشعرية التي نعرفها من العوامل التي تدفعنا -وبقوة- إلى التشكيك في صنيعهم، وإن كانت أساليهم معلومة عندنا، وإنما جاء محفوظاً عن الكلبي ودعوانة، وحتى المفضل الضبي، وهو ما يميزهم من الآخرين، لما تحلّوا به من جدية، فمناهلهم التي وردوا منها، كانت عناوين مجهولة، وما يغدّي هذه الفرضية، هو انعدام النقد الأولي الذي يصاحب عملية جمع الشعر الجاهلي، علماً وأنّ في تضاعيف عناصر التاريخ والتراجم مواد أسطورية محض، كما في النتف الشعرية مما يوجي بعدم الاستقرار⁶، وترى حماد لا يبرح السجن إلاّ بتدخل ذوي الشأن جزاء مدحه لهم، كانوا يتعاطون أغراضاً شتى، كالهجاء والغزل، كما كانوا يميلون في بعض الفترات إلى الشاعرية الرقيقة البسيطة. ولما تقدم السن بحماد وبلغ من العمر عتياً...، ساءت أحواله الاجتماعية وتدهورت، ولم تكن عناية العباسيين به كما كان عليه عند الأمويين، إلى أن مات منسياً، كان ذلك حوالي عام 156 هـ/772 م⁷.

3- آراء رجليس بلاشير في الرواية الشفوية:

يعد رجليس بلاشير من الأوائل الذين خاضوا بحثاً في مجال الرواية الشفوية كمصدر من مصادر الشعر الجاهلي، فهو يرى أنّ الشعر الجاهلي عرف سبيله إلى الخطية بعدما مرّ بفترة شفوية رواية الشعر الجاهلي أزمته مدّة طويلة، فهو يقول في ذلك، "لقد اكتسب الشعر الجاهلي معطيات التاريخ والأخبار المتصلة في صفة الكتابة فيتناقش في وقت طويل الأمد تراه هنا يقف على تخوم الشفوية كخاصية من الخصائص التي تطبع الشعر القديم بطابعها، وفي وقت متأخر لها خاصية الكتابة، كان سنة 30هـ/ 850م. أين عرف الشعر ذلك الذيع والصيت في الوسط القبلي العربي فيشكل عام بشقيه البدوي والحضري، إلّا أنّ بعض الأشعار لم يكتب لها هذا الرواج كونها لم تتعد حدود القبيلة الواحدة.

فالرواية الشفوية كوسيلة تناقل الأشعار، جاءت تخضع لعناصر تختلف كالفجائية والصّدفية وتقلّبات الهوى يسيرها في كلّ ذلك، تغيّر مجرى الأحداث القبلية، فعد موضوعاً لمقصد قد يكون وراء جمع الآثار الشعرية، إلّا أنّه لا يمكن لنا الفصل في ذلك، وبحثاً عن الخيوط الأولية الموصلة إلى التدوين، وجب تقّي آثار البدويين والتفتيش عن أسباب أخرى يكون تأثيرها أقوى حدّة، مما فات اهتماماً إلى منهجية التدوين.

وإنّ تأثير هذه الأسباب، قد يكون جانبياً عند التعمق في البحث، ومما نحسبه جاء عرضياً بناء الدولة في محطّاته الإدارية، للاستفادة من ريع توزيع الغنائم، وما يعطى، للجند وتلمس مواطن البدو في جغرافيا الحاضرة، كان ذلك أحد الدوافع لإبلاء الأنساب ما تستحق من إبلاء إنّ هذا الشكل من التحريّ لقي صدى في الأرض العربية لا يزيد عليه غيره فيه، وقد عرف هذا النوع من البحث في الجزيرة العربية رواجاً لا مزيد عليه حيث، صار علم النسب من التوثيق التاريخي الذي يشكّل لحمّة المجتمع الجاهلي، فأصبح النصّ الشعري يمثل متن علم النسابة، فأصبح يتخذ البيت الشعري أو المقطوعة الشعرية خدمة الغرض المتقدّم، الذي كان من الأمارات التي تفضي إلى إنشاء الأحلاف القبلية، على ألا يفهم ممّا تقدّم أنّ علم النسابة كان يلجأ إلى المكتوب في جميع أحواله، بل الأهمّ منه إسهامه في توسيع دائرة التقصّي لدى من اهتموا بهذا العلم، ونقصد الحجم الشعري الذي تمّ جمعه استناداً إلى ما حفظته الذاكرة الشفوية.

4- خصوصية الشعر الجاهلي:

إنّ النظريّة الشفوية التي جاء بها الغربيّون -بعضهم ومنهم المستشرقون- والتي حاولوا فيها تطبيق مناهجهم التي بها الكثير من الهنات؛ لأنّها لم تنطلق من خصوصيّة الشعر الجاهلي، وسبر أغوار لغته في نواحيها المتعدّدة والعميقة، فراحوا يتعسّفون في إقحام نظريّات علم الاجتماع ساعين كل السعي أن يكون الموروث الشعبي مجال تطبيقها كعنصر دخیل على الشعر الجاهلي، وفي ذلك يقول شولر: "إنّ نظريّة الرواية الشفوية للشعر الجاهلي خاطئة تمام الخطأ؛ لأنّها لم تبال بالنظر في كينونة هذا الشعر واللغة التي صيغ بها، بأخذ نظريّات من ميدان علم الاجتماع والتراث الشعبي، وأخضعت القصيدة العربيّة لتلك الأقوال، ويبدو أنّ هذه النظريّة ستخدم كما خدمت نظريّة الانتحال وسيبقى الشعر الجاهلي مجال اللدراسات النقديّة والفنيّة."

نفهم ممّا سبق أنّ للشعر العربي القديم عالمه الخاص به، ولفكّ شيفراته وجب التعامل معها بما ينسجم وهذا العالم، الخارجي والداخلي؛ ونقصد بالخارجي رواية الشعر التي كانت تعدّ القناة الواصلة، فعبّر المسار الذي رسمته لنا، حدث الاتصال، وإخراجه في طبعته الروائية بمالها وما عليها، أمّا الداخلي فيعني به لغة وروح اللغة في

الوقت نفسه ؛ لأن هذه الأخيرة هي التي قدمت نفسها عصية المطاوعة، فالمستشرقون اكتسبوا اللغة العربية لكنهم وقفوا عاجزين أمام اقتحام عرش روحها الذي يمثل خيط التواصل الروحي الرابط حلقات الموروث الشعري بشقيقه الاسلامي ، وهو ما وقف سدًا منيعًا أمام كثير من المستشرقين لولوج عوالم الشعر الداخلية، زد على ذلك الوزن والقافية والترنمات الموسيقية والصدق الفني للنص الشعري، كانت تلك ميكانزمات وآليات - من وجهة نظرنا- تفضي إلى التعامل مع القصيدة الشعرية من وجهة طبيعية في الإطار الجغرافي والتاريخي والفني ، ولهذا يقول الشاعر عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

إذن فالأممية كنعت مست عمقه الحضاري، ومنه فن القول بنسقيه؛ النثري والشعري، مما يطرح التساؤل الآتي: هل عرف العرب ضروب الكتابة وأدواتها؟، فباستقراء النقوش الحجرية واستنطاقها، فهي تتكلم عربيا، فالحفر في الحجر ضرب هو الآخر من ضروب الكتابة، والنشاط العلمي ببعض الحواضر، يقطع حاجز الشك في ممارسة فعل الكتابة، ثم أنّ هناك شكلا آخر لتمظهرات المكتوب، وهو ما وجد ميدانا له كتابة مواعيقهم وعهودهم ورسائلهم وصكوكهم، فلا يعقل-والحال كذلك - ألا يحظى كثير الشعر أو قليله بهذه العناية، علما وأنّ للشعر من التقديس والهالة ماله، ولسان حال القبيلة هو شاعرها، يزود عن حياضها يفاخر بها هو أمام القبائل الأخرى، يعدّد مناقبهم، يشجّد هممهم، ويقوّي عزائمهم بالمقابل يقف على مثال ومطبات أعدائهم، يحطّ من شأنهم ويثني من إرادتهم، فكيف بهم لا يقيّدون هذا الشعر؟! نجد في تاريخ الأدب الجاهلي كثيرا من الشعراء الكتاب، ففي قصة عمرو بن كلثوم عندما أبلغ أبو عبيد النعمان بن المنذر، فبحث عن كاتب يكتب إليه:

أَلَا أَلْبِغُ النُّعْمَانَ عَنِّي رِسَالَةً فَمَجْدُكَ حَوْلِي وَلُؤْمُكَ قَارِحٌ

مَتَى تَلْقَنِي فِي تَغْلِبِ ابْنَةِ وائِلٍ وَأَشْيَاعِهَا تَرْقِي إِلَيْكَ الْمَسَامِعَ

فالشاعر هنا أمام عجزه عن كتابة شعره، راح يبحث عن كاتب يكتب له، فالكتابة كفعل وممارسة حاصلان لا محالة، ونجد في تاريخ الأدب الجاهلي من الشعراء الجاهليين -قلّوا أو كثروا-، عرفوا نشاط الكتابة مباشرة ، فمنهم لقيط بن يعمر الإيادي، الذي كان ضمن الكتاب والمترجمين بقصور فارس، ففي القصيدة التي بعث بها إلى قومهم نذيرا لهم على استعدادات الفرس لقتال العرب، دفع إليهم بقصيدته هذه مكتوبة، ومنها :

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادٍ

ليختمها بـ:

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ، وَمَنْ سَمِعَا

فقرائن الكتابة كقرينة الصحيفة، وكتابي من القرائن الصريحة لفعل الكتابة ، فالكتابة كممارسة، لم تكن بمنأى عن الحياة الثقافية الجاهلية.

نخلص مما سبق إلى أنّ الرواية الشفوية، كوسيلة نقل الموروث الشعري لم تكن الوسيلة الوحيدة، بل وجدت إلى جانبها الرواية الكتابية، بالطبع لم تكن بدرجة شيوع الأولى، إلا أنّ حضورها ثبت في أكثر من مناسبة، وبأكثر من دليل، فطغيان سماع، الروائي جعل يغطّي كثيرا من مساحات الثاني ، إلا أنّه لا يمكن له بأيّ حال من الأحوال إقصاءه وإعدامه عنوة وظلما دونما مرجعية علمية !

إنَّ الأسباب التي سردها بلاشير كمرجعية لكتابة الشعر الجاهلي، والتي ذكر منها، علم النسابة، وما اعتمده من شعر جاهلي كمصدر للعودة إلى الجذور الأولى لمنابت القبيلة، ضف إلى ذلك بؤر التباين السياسي التي أذكت نيران الاختلاف، مما دفع إلى التوجّه إلى شعر الهجاء، جعل من هذين العاملين أحد الأسباب الرئيسة في تقييد الشعر، زيادة على أسباب أقل أهمية من الأولى، ظهرت في الحاجة إلى معرفة التاريخ الاجتماعي خاصّة مع ما أحدثه الإسلام من ثورة تجلّت في الإيديولوجية القيمية، وإحداث التغيير الجذري في التراتب الاجتماعي، بقي في كلّ ذلك مجهود الخليفة معاوية بن أبي سفيان، يلقي بكثير من إشعاعه على حركيّة التدوين الشعري التي طبعت هذا العصر بطابعها خوفاً من تبدل اللسان العربي، وما ينجرّ عنه من ضياع اللغة العربية بفعل العنصر الدخيل.

وبقي هذا التدوين في ظلّ هذه الحركيّة يراعي الجماليّة الشعريّة التي توجّهت بفعلاً لتقييد إلى عنصر الانتقائيّة، إلّا أنّ بلاشير يستدرك ويعرّز ما وصل إليه من تخرّج، من أنّ نشاط الكتابة قديم قدم تعامل الجاهلي مع النصّ الشعري، فالإجابة تاريخياً لا تحيل إلى الحسم، والوقوف على تاريخ معلوم، وهو أمر عجز بلاشير نفسه عن تقديم نصوص حجاجيّة تجعلنا نطمئن إلى ما ذهب إليه من رأي.

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلهُ حتى أنال به كريم المأكّل

وغير هذه المناسبة كثيرة، فإجمالاً الشعر، أشعار من الوجهة القيمية وهي⁸ التي كانت الفيصل في منهجية التميّز منه، تبقى مسألة أخرى تحرّ في النّفس، وهو ما تعلّق بتاريخية تدوين الشعر الجاهلي، فالأحكام جاءت متضاربة، متفاوتة؛ فمنه م من يذهب بأقدميّةها، ومنهم من يرى أنّها بدأت مع عصر التدوين نهاية القرن الأوّل الهجري، وبداية الثاني، -كما أسلفنا-.

5- نقد منهج الرواية الشفوية عند بلاشير:

إنّ المذهب الذي ذهب إليه بلاشير، من أنّ الشّفويّة كرواية لازمت الشعر الجاهلي ردهاً من الزّمن، مذهب له جانبه الصّحي، فكثيرة هي الأطروحات التي ذهبت المذهب نفسه، فمن بينهم، الغدامي الذي نقل عنه "ظلت رواية الشعر الجاهلي شفويّة بالفعل والاصطلاح على مدى زمن طويل مستمرّ حتّى بعد أن تمّ التدوين؛ لأنّه كان تسجيلاً خطياً للرواية الشّفويّة وأنها سمة للرواية وليست للإبداع!"

فالغدامي يتبنّى الطّرح نفسه عند بلاشير، فكلّا الرّجلين، يريان أنّ الرواية الشّفوية، هي السّائدة، والتي إليها استند الموروث الشعري مدّة من الزّمن توصف بالطّول، حتّى أنّها كانت مصدراً أولياً عليه اعتمدت الرواية المكتوبة عصر التدوين. ونجد كلّاً من، جيمس مونرو ومايكل رويتلر، ينظران إلى الشعر كموروث شعبي يمكن إخضاعه لنتائج البحث العلمي، "وأهمّها اعتماد الشعر الجاهلي على الرواية الشّفوية، واستخدامه الإنشاء، والنتيجة لانتصّ ثابت ولاشاعر معروف". وفي هذا يتدخّل المستشرقان بمحاولتهما تطبيق المناهج ليكون مضماراً لها الشعر الجاهلي ذلك بتطبيق نظريّة البحث العلمي على التّراث الشعري.

فبرغم وعي الدارسين الذين تخصّصوا في تطبيق المناهج الشّفوية على الشعر الجاهلي المتعدّد الأغراض، إلّا أنّهم واصلوا نهجهم لتسويغات منها:

- قيام أداء الشعر الجاهلي حتّى العصر الأموي على الشّفوية، على غرار الآثار الشعريّة العالمية الأخرى.
- انتشار الرواية الشّفوية بين القبيلة والقصائد شاعرها، ومنه شاع تقليد نصّ القصيدة.

- الوزن والقافية.
- نمطية اللغة.
- الخلو من التضمين.
- الافتقار إلى الكتابة.

إنّ العرب لم تتوافر لديهم الشّفاهية كخاصيّة ينفردون بها عن باقي أمم عصرهم، فلم يكونوا مبتدعين في التّداول الشّفوي، فكثير من الأمم سبقتهم إليها ممارسة، فالحضارة اليونانية القديمة وحتى الحديثة والإنجليزية، والإسبانية والفرنسيّة قديما، وحضارة الألمان في العصور المتوسطة، والأمم نفسه بالنّسبة للحضارة الإفريقيّة والهنديّة.. فلا ضير أنّ جزء من روايتنا، جاء يخضع لسلطان الرواية الشّفويّة، بحيث أنّ أمما سبقت العرب دخلت في تقاليدھا ترسيخ الشّفاهية لتناقل الموروث الثقافي.

ليس يحقّ لنا من وجهة موضوعيّة، أن نبعد الشّعري العربي القديم عن جانبه الشّفوي، فهو - وبما يوسم به من خصوصيّة-، أعدّ للإنشاد، فجاء يعتمد هذا الأخير على الأداء السّماعي التّقليدي، إلّا أنّ هناك نظرة خاطئة، نادت بأنّ هذا النّوع من الأداء كان بوازع الشّعري الارتجالي، فإن صحّ فليس مع الموروث الشّعري الجاهلي كلّ، لكن هناك من الشّعري ما جاء يصنع الاستثناء ومدرسة الصنعة كما -تقدم هذا- ولّت وجهها صوب إعادة التّظن والتّنفيع وتقليب القصيدة ومراجعتها، ممّا جعله شعرا يميّز من غيره ويأخذ مسارا خاصّا به. فضلا عمّا تقدّم، نجد عنصري الوزن والجرس الموسيقي الدّخلي للنص الشّعري، من العناصر التي أسهمت في تعزيز التداول الشّفوي، "إنّ الشّعري الشّفوي الذي جاء ... بطريقة بطيئة ومخطّط له بعناية، وغالبا ما كانت مضنيّة، هي - إن لم يكن من معذر- تمييزها، فإنّها إذن من الممكن مقارنتها تماما على الأقلّ بالشّعري المكتوب، وهو ما سبق أن أشرنا إليه، إلّا أنّ الإضافة التي جاء بها الشّاهد، هو إمكانية مقارنة مثل هذا النّوع من الشّعري بالأشعار المدوّنة في عصره؛ لأنّه كيف يمكن لشعر شفويّ، إذا لم يرسّخ في الذاكرة كالأثر المكتوب أن يتيح مجال التّنفيع؟!

خاتمة البحث:

إنّ الرواية الشّفوية عند بلاشير، لم تأخذ الحيّز الذي كان يجب أن تأخذه، هذا من حيث السّعة، كونها جاءت موزّعة على فضاء محدود مقارنة بغيره من المستشرقين الذين سبقوه إلى هذه الظّاهرة الدّراسيّة، شأن؛ نودلّي أو الواردو بروكلمان؛ لأنّ دراساتهم جاءت مستفيضة، نستطيع أن نقول عنها، أنّها سبرت أغوار الموضوع من جانبها التّاريخاني أو القيمي، محتفظة لنفسها في ذلك بخصوصيّة الطّرح. أمّا فيما تعلّق ببلاشير، قلت: أنّ تناوله جاء مقتضبا، فمع اقتضابيته شدّني إليه طرحه الوسطي، فمن حيث ما أصدر من أحكام عن الرواية الشّفوية، فهو لم ينكرها على الشّعري الجاهلي، كمصدر من المصادر التي حوت التّراث الشّعري قبل ظهور الإسلام ردها من الزّمن، إلّا أنّها لم تسلم من النّقد الذي سلّطه بلاشير عليها؛ أي على الرواية السّماعيّة، لما رآه من خطر محقق لها، مثله مثل الرّواة الذين اهتمّوا فعل رواية الشّعري على امتداد خمسين سنة أو يزيد، وتجلّت خطورتهم في انتماء بعضهم إلى أسر عربيّة عريقة وتقمّص أخلاقيّاتها وأدبيّاتها وعاداتها واجتماعيّاتها. فحصل لهم ذلك التّواصل الاجتماعي تشدّ عضده اللّحمة القبليّة والتي قد تسع خارج حدودها الضيّقة لتلامس جغرافيا قبائل عربيّة أخرى. مما أفضى بهم إلى امتلاك خاصيّة اللّغة حدّ الإتقان، وهو ما أجج أوارنيران الشّفوية بصفة شبه شاملة في الأمصار التي عرفوها في حلّهم وترحالهم.

والمظنون أنّ بلاشير وغيره ممّن قاسمه هذا الطّرح، إنّما انطلقوا من باب التّخمين ليس إلّا، لتعليل نحن نراه مقارنة للإشكاليّة التي انطلقوا منها في إبعاد الكتابة كفعل متحضّر عن مجتمع أو رأوا أنّ الشّفوية بحكم البداوة تأصّلت فيه، وهي نظرة لاتقوى أمام القرائن المادّيّة والتّاريخيّة التي سبقت في هذا الصّدّد في أكثر من مناسبة، ومن جهة أخرى راحوا يفتشون عن حججهم، فهي إلى الوهم أقرب منها إلى الواقع في التّشكيك في صحّة الشّعري الجاهلي؛ لأنّها كلّما اعتمدت على نص وصور وآيات مقيدة، أبعد عن نفسه هذه التّهمة، ودفعها بقوة ليظهر في موقف قوة ترشّحه لإثبات نفسه والبقاء شامخاً أمام وهن الشكّ الذي أحرق به تلك مسوّغات رأيها نحن كفيّلة بتفنيد مزاعم بلاشير ومن ذهب مذهبه.

الهوامش:

- 1- رجليس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج 1، ت، إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، د/ط، 1986 ص: 110.
- 2- أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى (1427هـ- 2006م) ص: 134.
- 3- بسام قصوس "المدخل إلى مناهج النقد المعاصر" دارالوفاء لدينا الطباعة والنشر الإسكندرية ط 1 سنة 2006م، ص 164.
- 4- عادل حسن غنيم د. جمال محمود في منهج البحث التاريخي دارالمعرفة الجامعية، ط 3 سنة، 2007م ص 183.
- 5- مراد وناجي ميت صريح أبو قاسم سعد الله في الفكر والثقافة فن اللغة والتاريخ الحبر ط 1 الجزائر 2008م ص 218.
- 6- محمد هايل حميدات، قضايا النقد الأدبي الحديث، دار الأمل والنشر والتوزيع الأردن ط 1 1991م ص 154.
- 7- محمد غنيمي هلال، "النقد الأدبي الحديث"، العودة دار الثقافة، ط 1973م ص 192.
- 8- عنتر بن شداد، شرح ديوان عنتر بن شداد، تعليق عباس إبراهيم، د/ط، د/ت، د/د، ص، 105.
- *لمزيد من التوسع ينظر: ناصر الدين الأسد مصادر، الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، مصر ص 189.